العهد الثالث

الملكة أروى الصليحى

كان أهل اليمن يخاطبونها بلقب« الملكة الحرة » حبًّا بها وإجلالاً لها . وهى « أروى بنت أحمد بن محمد الصليحى » .

ولدت سنة ٤٤٠ هـ . ويروى أن أباها أحمد بن محمد الصليحى هو الذى بعثه الملك على الصليحى مع الوفد اليمنى إلى الخليفة الفاطمى الإمام المستنصر بالله بعد استيلائه على حصن مسار ، لكى يستأذن الخليفة فى إظهار الدعوة الإسماعيلية فى أنحاء اليمن . ويروى التاريخ أنه مات فى عدن بسقوط البيت الذى كان يسكنه عليه ، وأروى كانت فى ذلك الوقت طفلة صغيرة .

أمها « الرواح » بنت الفارع بن موسى الصليحى : وقد تزوجت من عامر بن سليمان بن عبد الله الزواحى بعد موت زوجها أحمد ، فرزقت منه سليمان بن عامر الزواحى القائد الكبير الذى لعب دوراً هامًّا فى الفتوحات الصُّليحية . فكان أخاً لأروى لأمها .

قامت بتربيتها وتهذيبها وتأديبها السيدة أسماء بنت شهاب

زوجة الملك على الصليحى بعد زواج أمها . فنشأتها تنشئة طيبة فاضلة . وكانت موضع اهتمام الملك على الصليحى أيضاً. فكثيراً ما كان يقول لأسماء: « أكرميها ، فهى — والله — كافلة ذرارينا وحافظة هذ الأمر على من بقى منا » .

كانت على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة إلى جانب ماتمتعت به من جمال الخلقة ، فكانت بيضاء اللون مشربة بحمرة ، مديدة القامة . معتدلة البدن . تميل إلى السمنة ، كاملة المحاسن ، جهورية الصوت . قارئة كاتبة . تحفظ الأخبار والأشعار والتواريخ وأيام العرب ، ولها تعليقات وهوامش على الكتب تدل على غزارة مادتها . وكان يقال لها : « بلقيس اليمن الصغرى » لرجاحة عقلها وحسن تدبيرها . وكانت إلى جانب ذلك متبحرة فى علم التأويل والتنزيل الإسماعيليين . وكان الدعاة يتعلمون منها من وراء الستر ، ويأخذون عنها ويرجعون إليها ، وامتازت أيضاً بالصلاح والتقوى والخبرة الواسعة والمعرفة الفائقة بأحوال الناس مما ساعدها على إدارة شؤون بلادها فى ظروف حرجة أحاطت بالبلاد اليمنية . ويقول التاريخ: إنها كانت امرأة فاضلة ذات نسك وورع وفضل وكمال عقل وعبادة وعلم . تفوق الرجال . فضلا عن ربات الحجال . ولذلك استحقت مدح الشاعر القائل :

وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكير فخر للهلال

وقد استحقت التقديم والتفضيل على الفضلاء من الرجال فكان الخليفة الإمام المستنصر بالله الفاطمى قد أصدر إليها أجل أبواب دعوته فأفادها من علوم الدعوة الإسماعيلية ما رفعها عن حدود الدعاة إلى مقام الحجج الكبار .

فالصفات الكريمة التى لم تتجمع قط إلا فى القليل من نساء العالم تجمعت فى الملكة الحرة أروى .

وإنه من الطبيعى بعدما علمنا كل هذا عن السيدة الحرة أروى ، وبعدما وقفنا على مقدار اهتمام الملك على الصليحى وزوجته أسماء بنت شهاب وعنايتهما بها ، أن يختاراها زوجة لابنهما الملك المكرم . وقد اقترنت به بالفعل بعد أن تولى منصب ولاية العهد سنة ٤٥٨ هـ . وكان لها من العمر ثمانى عشرة سنة . وفى هذا الزواج قال الشاعر القمى :

وكريمة الحسبين يكنف قصرها أسد تخاف الأسد من صولاتها
وتكاد من فرط الحياء تغض عن تمثالها المرئى فى مرآتها
ظفرت يداك بها فبخ إنما لك تذخر العلياء مضمونا تها

وكان الملك على الصليحى قد أصدقها عدن حين زوجها من ابنه المكرم ولم يزل ارتفاع عدن من حين زواجها يرفع إليها . وهو مائة ألف تزيد تارة وتنقص .

وقد ولدت للملك المكرم علياً ومحمداً وفاطمة وأم همدان. فأما علي ومحمد فسنتكلم عنهما فيما بعد ؛ وأما أم همدان فقد تزوجت من ابن خالها أحمد بن سليمان بن عامر بن سليمان الزواحي . فرزقت منه بعبد المستعلي . وتوفيت سنة ٥١٦ هـ وأما فاطمة فتزوجت من شمس المعالي علي بن سبأ بن أحمد الصليحي وتوفيت سنة ٥٣٤ هـ .

بدأت الملكة أروى نشاطها السياسي في عهد زوجها الملك المكرم . وفي هذا يقول عمارة اليمني بتاريخه : « لما توفيت أسماء بنت شهاب . والدة المكرم ، فوّض الأمر لزوجته الملكة أروى . فقامت بالأمر وحدها واستعفته في نفسها ، وقالت : إن المرأة التي تراد للفراش لا تصلح لتدبير أمر ، فدعني وما أنا بصدده .

وكانت تستشير في هذه المدة القاضي عمران بن الفضل اليامي ، وأبا السعود بن أسعد بن شهاب الصليحي ، ولما توفي زوجها سنة ٤٧٧ هـ ، حملت الملكة أروى وحدها عبء هذه المسئولية الجسيمة . وأصبحت بتفويض من الخليفة الفاطمي الإمام المستنصر بالله تتصرف في أمور الدولة والدعوة الإسماعيلية في اليمن والهند وعُمان .

ولم يقف حسن سعي الخليفة الفاطمي الإمام المستنصر

بالله عند هذا الحد، بل أمد الملك على بن المكرم بالتأييد، وأوصاه بأن يهتدى بهدى أمير المؤمنين . كما أنه أرسل إلى أخيه الأمير محمد بن المكرم يأمره بطاعة أخيه ومؤازرته وموالاة من يوالى أمير المؤمنين ومعاداة أعدائه . وكذلك إلى كافة الأمراء والقواد والمقدمين والمؤمنين ، بل إلى الملكة أروى نفسها يأمرها بضرورة طاعة الملك على والامتثال لأمره ، وأن تعول عليه فى سرها وجهرها . وأن تستعين بأهل الدعوة فى اليمن على من عاداهم وعاداها .

وفى سنة ٤٨٠ هـ أرسل الخليفة الفاطمى الإمام المستنصر بالله سجلاً آخر إلى الملك على لقبه فيه بلقب « سليل الدعوة ونجلها » . وقد قصد بذلك أن يشعر الجماعة فى بلاد اليمن بمكانة على من الدعوة ، ويبيّن لهم مدى تأييد الإمام له . وأنه قد اختاره فى رئاسة الدعوة والدولة فى اليمن بالنظر لما كان لآبائه من خدمات وفضل على الدعوة الإسماعيلية .

هذا وتدل سياسة المستنصر هذه على بعد نظر فى الأمور وحسن إدارة ، فقد رفض تولية سبأ بن أحمد الصليحى الملك بالرغم من وصية المكرم له ، وولى علىّ بن المكرم على رغم صغر سنه ، لأنه يعلم تمام العلم أن الملكة أروى والدته لها من القوة والكفاية ما يمكن الاعتماد عليها فى تنفيذ السياسة

التى ترضى الفاطميين . ولا ريب فهى سيدة عريقة الأصل كريمة المحتد تمرنت على إدارة شؤون المملكة فكانت أبعد نظراً من الملوك الرجال أنفسهم .

هذا من جهة . ومن جهة أخرى أدرك الخليفة الفاطمى الإمام المستنصر بالله شيئاً آخر هو أن المحافظة على مبدأ الوراثة فى الابن الأكبر خير ضمان لعدم إثارة المنازعات الداخلية بين الأحفاد والأعمام والأسرة الواحدة ؛ ولا سيما أن هذا المبدأ كان معمولا به فى عهد الدولة الفاطمية إلى أيام الإمام المستنصر بالله بالنسبة للعائلة الفاطمية الحاكمة ، ولهذا كله نراه يولى الطفل على بن المكرم شؤون الملك والدعوة بدلا من ابن عمه سبأ بالرغم من أن الأخير كانت تؤهله لهذا المنصب سنّه وشخصيته الممتازة ومحبة الناس ، وغيرته على الدولة ودأبه على رفع شأنها ؛ كما تؤهله أيضاً مواقفه الحميدة فى خدمة الدولة فى عهد الملك المكرم . وأن وصية الملك المكرم تعد أحسن شهادة بذلك .

أجل ؛ لقد كانت مؤازرة الإمام المستنصر بالله للملكة أروى وابنها على بن المكرم دليلا على ثقة غالية وحبًّا بجمع كلمة أهل الدعوة وجعلها حولها ودعوة جميع المسلمين على وجوب طاعتها وسبباً يجعل الأمير سبأ يتخلى من المطالبة

بحقه . وتجاه هذه العواصف الداخلية تعصف بالمملكة الفتية . وإزاء هذه الانقسامات . فكرت الملكة أروى بثاقب نظرها وحسن سياستها وتقديرها الصحيح لعواقب الأمور ، واستطاعت أن تقضى على الفتنة فى مهدها عندما جعلت الأمير سبأ نائباً عن ولدها بشؤون المالك وحامياً لذمار دولته من المعتدين . وبذلك قضت على كل محاولة للفساد أو النيل من الدولة .

ومهما يكن من أمر فإن الأمير سبأ أبلى فى ذلك بلاء حسناً ، ودخل فى حروب متوالية مع جيّاش بن نجاح الذى كان قد هرب إلى الهند حينما قتل سعيد الأحول بن نجاح سنة ٤٦١ هـ ، وما لبث أن عاد إلى اليمن متنكراً حينما علم بمرض المكرم واضطراب أحوال دولته ، وكان قد اشترى فى الهند جارية هندية تزوج منها وأحضرها معه إلى اليمن ، وقد رزق منها ابناً سماه « الفاتك » تولى الحكم بعد وفاة أبيه سنة ٤٩٨ هـ .

ومما هو جدير بالذكر أن جياشاً وزوجته الهندية ظلا مختفيين بزُبيد حتى عرف أن الوالى أسعد بن عراف قد حدث بينه وبين وزيره على بن القمم نزاع اضطر الوزير أن يقول : « لو وجدت كلباً من آل نجاح لملكته زُبيد » ، فاغتبط جياش من هذه الأخبار ، وأخذ يعد العدة ،

فاتصل بالأحباش من المتفرقين بالبلاد وأمرهم بالاستعداد ، كما اتصل بالوزير على بن القمم وتعاهدا على كتمان الأمر حتى يتخلصا من حاكم زُبيد أسعد بن عراف . ولما استوثق جياش . وأكمل استعداداته لنفسه . أمر بضرب الطبول والأبواق . فثارت معه عامة أهل المدينة وطردوا الوالى . ولم يمض شهر واحد حتى أصبح يركب فى عشرين ألف محارب من الأحباش وبنى عمه وعشيرته والموالين له .

أجل : دخل سبأ فى حروب متواصلة مع جياش . وذلك لأن حصون بنى المظفر كانت مطلة على تهامة وهى أقرب إليها من جميع الجبال . فكان إذا برد النسيم نزح العرب بقيادة سبأ إليها . وارتحل جياش عن البلاد . فيقيم سبأ لجباية الخراج ، وبسط العدل . وكان يحتسب للعمال ما قبض منهم جياش فى أشهر الصيف والخريف ؛ فإذا انقضى الشتاء وانصرم الربيع ارتحل بمن معه من العرب من تهامة إلى الجبال وملك جياش تهامة إما بالقتال وإما لشدة الحر وانتشار الوباء فى العرب . ويقول المؤرخ عُمارة : « وإذا عاد جياش إلى زُبيد نشرت المصاحف وابتهلت له الرعايا بالدعاء ، وظهرت الفقهاء . وتطاولت العلماء . واحتسب جياش للعمال ما قبضه منهم سبأ ونوابه فى مدة الشتاء والربيع » .

ولما طال ذلك على جياش وأتعبته حرب العرب وخشى منهم الغلب دبر له وزيره خلف بن أبى طاهر حيلة فأرسل من يشير على الأمير سبأ الصليحى بوصوله إلى زُبيد . وقد أشار الوزير خلف على جياش بأن يعتقله ويقبض أملاكه وأمواله . وأن يقيم محمد بن الغفارى وزيراً له ففعل ذلك ؛ ثم إن خلفاً تظاهر بأنه نقب السجن وهرب إلى سبأ . فلم يزل يُحَسِّن له النزول إلى تهامة حتى ذهب إلى زُبيد ومعه ثلاثة آلاف فارس وعشرة آلاف راجل ، وكان جياش قد أعد الجموع واستنصر بالشريف يحيى بن حمزة بن دهاس ، وكان كثير من زعماء جيوش جياش قد كاتبوا الصليحى غدراً وكيداً ، فلما انتهى سبأ . وفرقته إلى باب زُبيد ، وكان الشريف وغيره قد نصبوا مع جياش كميناً ، ظهروا على الناس بغتة . ووقعت بينهم موقعة الكظائم المشهورة فى اليوم الخامس من ذى الحجة سنة ٤٧٩ هـ ؛ حيث انهزم سبأ ومن معه ، وقتل الأميران قيس بن أحمد بن مظفر (أخو الأمير سبأ) ومحمد بن مهنا الصليحيين . وحمل الشريف يحيى ابن حمزة على القاضى عمران بن الفضل اليامى فطعنه طعنة مات بسببها بعد أيام وعُقر فرس الأمير سبأ ، فاضطر أن يسير راجلا فى أغمار الناس حتى حمله بعض جنده على جواده .

وفى قتل القاضى عمران بن الفضل اليامى يقول الشريف يحيى بن حمزة مفتخراً :

أبلغ نزاراً حيث حل نزارُ . . . . . .

ومنها :

ونجا الحجازىُّ الرئيسُ بطعنة نجلا لها تحت القميص خوارُ

ثم اعتذر إلى الأمير سبأ فيما كان من نصره للحبشة فى قصيدة منها :

وقد يعزُّ علينا ما أصابكم منا بغير رضا كفٌّ ولاقدم
والله يعلمُ أنى يوم وقعتكم لم أمش إلا على جمر من الندم
وأن فيض دم منكم كفيض دم بكر بلاء وثأر الطف لم يرم

فأجابه عبد الله بن يعلى الصليحى على لسان سبأ :

يارا كباً راح لايلوى على أحد لقيت داعية التوفيق والنعم

إلى قوله :

فليس قيس وإن جلت رزيَّته وكان صنوى لحمى لحمه ودمى
ولا الهمام أبو موسى وصاحبه محمد وهما من أوثق العصم
بأول القوم منا حمّ موتهم بين الأسنة والهندية الخُذُمُ
والسيف يأكلنا حيناً ونوتعه حيناً إذا شاء فى الأعناق والقمم

وملك جياش زُبيد . ولم يقدر العرب على أخذ تهامة بعد هذه المعركة برغم محاولات الأمير المفضل بن أبى البركات

لاسترجاعها . وكانت هزيمة العرب ضربة قاسية على كيان الدولة الصليحية . بل على فكرة وحدة البلاد اليمنية تحت راية الدولة الصليحية العربية .

وفى عهد الملك على بن المكرم قام نزاع بين الصليحيين والزواحيين ، وكان هؤلاء أركان الدولة الصليحية ولحمتها فى إبان عهودها الأولى . فشغل ذلك النزاع أروى حقبة من الزمن لأن المخالفين انتهزوا هذه الفرصة ووجدوا فى هذا النزاع وسيلة لذلك صرح الدولة الصليحية وإفسادها بالسعى لدى المتخاصمين فى توسيع شقة الخلاف مما دعا الملكة أروى إلى أن تعرض الأمر على الخليفة الفاطمى الإمام المستنصر بالله الذى أسرع برده ، وكلف الملكة بوجوب العناية لفض هذا النزاع بين سبأ بن أحمد الصليحى ، وعامر بن سليمان الزواحى . وشدد عليها فى ضرورة وضع حد لهذا النزاع بين الاثنين حرصاً على سلامة الدولة .

ومن ردّه : « وأما ما كان شجر بين أبى حمير سبأ بن أحمد الصليحى ، وأبى الربيع سليمان بن عامر الزواحى أعزهما الله فقد عرف أمير المؤمنين ما تكررت به مكاتباتك ... وقد كان أمير المؤمنين ندبك من قبل ويندبك ، وفوض ويفوض إليك ، ويرتضى سداد رأيك لفصل هذه القضية وإعادة

الأمر فيها إلى الصورة المرضية العائدة بإطفاء الثائرة . وحسم ما شجر بين المذكورين من النفار . وإحجام عزائمهما ورجائهما وأموالهما وعددهما . لما يلف منهما من منابذة العدو والقيام بفرض الجهاد . ومقارعة ذوى العناد والإلحاد واسترداد ماشذ عن حوزة الدعوة الهادية من البلاد . والفيئة إلى أحسن ما كان عليه . وأجمل ما يجرى أمثالهما إليه » .

ولما كانت مسألة هذا النزاع تعد مسألة حيوية بالنسبة لبقاء دولة الصليحيين واستمرار نفوذ الفاطميين فى اليمن ؛ فإن الخليفة المستنصر بالله لم يأل جهداً فى أن يتولاها بعنايته ورعايته لكى يقف تيار النزاع وتثبت أقدام الدولة . فبادر فى شهر ربيع الأول سنة ٤٨٠ هـ . وأرسل إلى أمراء الصليحيين وإلى الزواحيين وإلى رؤساء الحجاز وكافة رجال الدين وأهل الدعوة فى اليمن رسالة يحثهم فيها على تناسى الأحقاد ويأمرهم بوجوب طاعة الملكة أروى وابنها الملك على بن المكرم والتعاضد والتوافد فى نصرة الدعوة الإسماعيلية . ويعد هذا السجل شهادة هامة على اعتراف الإمام بفضل الدولة الصليحية على الدعوة الإسماعيلية . كما يعد من أهم العوامل التى ساعدت على تثبيت مركز الدولة فى الصدر الأول من حكم الملكة أروى الصليحية . وكان من أثر هذا أن انتظمت الأمور

وعادت المياه إلى مجاريها . وأذعن المؤمنون هناك لأوامر الإمام ودانوا بالطاعة للملكة أروى .

وقد سر الخليفة الفاطمى الإمام المستنصر بالله كثيراً حين جاءت الأخبار من الملكة بأن النزاع بين الصليحيين والزواحيين قد انتهى على أحسن حال ، وقد وقفنا على ذلك الخبر من سجل أرسله الإمام المستنصر بالله إلى الملكة أروى فى شهر ربيع الأول من سنة ٤٨٠ هـ ومن رسالة أخرى أرسلها إلى ابنها فى شهر ذى القعدة سنة ٤٨١ هـ . ومنها : « وكمل بورود أوامر أمير المؤمنين تمامه من زوال ما كان شجر بين سبأ ابن أحمد الصليحى وسليمان بن عامر الزواحى . وانقشاع ما كان غشى أمير المؤمنين بذلك من الضباب ، وخمود ما كان تأجج من نار الفتنة التى أغلق دونها الباب . وعوْد الأمر فيما بينهما إلى أجمل عوائد الاتفاق ، وتصرم حكم المجانبة والافتراق ، واستواء قلبيهما على الصلاح الجامعة للخير أسبابه والمفتحة له أبوابه والشاملة للكافة مبادئه وأعقابه ، وتأليف نياتهما على التقوى ومخالفة الهوى المردى ، واتباع سبيل الرشد والهدى » .

ويصادف فى تلك الأثناء أن يموت ابن الملك المكرم الأصغر « الأمير محمد » فى حياة أخيه ، ولم تطل الأيام

حتى يقضى الله بوفاة الملك على نفسه . فعاد الأمير سبأ يطالب بحقه فى تولى أمور الدولة والدعوة . ولكن الملكة أروى لم تمكنه من ذلك . بل قامت هى وأعلنت كفالتها لكافة المؤمنين والدعاة الميامين والحدود والمستجيبين . ثم نصبت نفسها المسؤولة الأولى عن شؤون الدولة .

فاتخذ الأمير سبأ سبيلا آخر لإقناعها بأن طلب يدها للزواج . وقد ظن أنه يستطيع أن يصل بهذه الطريقة إلى تحقيق أغراضه بالملك ، مع أنه كان يعلم تماماً بأنها سوف لا ترضى بهذا الزواج وكيف يتم ذلك وقد سبق أن استعفت زوجها الملك المكرم بقولها : « إن المرأة التى تراد للفراش لا تصلح لتدبير أمر فدعنى وما أنا بصدده ! »

وقد حدث هذا فى حياة زوجها الملك المكرم الذى كانت تشاطره الحكم ... أما الآن وقد تولت تدبير شؤون الدولة الداخلية والخارجية وحدها ، وأمور الدعوة الإسماعيلية أيضاً ، فإنه من المستبعد كثيراً أن تقبل بهذا الزواج السياسى .

ولما رفضت الملكة أروى ذلك وأنكرته غاية الإنكار ، جمع الأمير سبأ جيوشه وجموعه وسار من حصن أشيح إلى ذى جبله لا لمحاربة الملكة بل لإظهار قوته وسؤدده ، فجمعت هى أيضاً جموعها ، فتناوش الفريقان ، وكادت رحى الحرب

تدور بينهما لولا أن سليمان بن عامر الزواحى (أخو الملكة أروى لأمها) أنقذ الموقف ، فقد أشار على الأمير سبأ أن يتصل بالخليفة المستنصر بالله ويقيمه حكماً فاصلا بالأمر ، فهو الخبير والقاضى فى فض هذه المشكلة .

فترك الأمير سبأ المنهج العسكرى ورجع إلى حصن أشيح ، وسير إلى الإمام المستنصر بالله رسولين هما : القاضى الحسين بن إسماعيل الأصبهانى ، وأبو عبد الله الطيب ، وقد ساعدته فى تحقيق مطلبه رغبة الإمام المستنصر بالله فى استتباب الأمن فى اليمن وفى إقرار الوحدة بين أنصار الدولة الصليحية والدعوة الإسماعيلية ، فلما وصل هذان الرسولان إلى القاهرة لم يرض الإمام المستنصر بالله عن بقاء هذا النزاع بين أنصاره فعمل أن يجذب إليه الفريقين المتنازعين بزواج الملكة أروى من الأمير سبأ ، فكتب إليها يأمرها بقبول الزواج ، وأرسل كتابه مع الرسولين ، ولما دخلا على الملكة أروى وهى بدار العز فى ذى جبلة تكلم الرسول وهو واقف بين وزرائها وأهل دولتها فقال : أمير المؤمنين يقرأ السلام على الملكة أروى السيدة الرضية ، الطاهرة الزكية ، وحيدة الزمن ، سيدة ملوك اليمن ، عمدة الإسلام ، ذخيرة الدين ، عصمة المؤمنين ، كهف المستجيبين ، ولية

أمير المؤمنين. كافلة أوليائه الميامين. ويقول لها : « قد زوجك مولانا أمير المؤمنين من الداعى الأوحد ، المنصور ، المظفر ، عمدة الخلافة ، أمير الأمراء سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحى على ما حضر من المال وهو مائة ألف دينار عيناً وخمسون ألفاً أصنافاً من تحف ولطائف وطيب وكساوى » .

فرفضت وأصرت على رفضها ، ولم يزل وزيرها زُريع ابن أبى الفتح والقاضى الأصبهانى يلاطفانها حتى أجابتهما إلى تحقيق رغبة الخليفة . فعقدوا عقد الزواج ، ولم يلبث الأمير سبأ أن سار فى أمم عظيمة إلى ذى جبلة ، فأقام شهراً والضيافات الواسعة تخرج إلى مخيمه فى كل يوم حتى أنفقت على جيشه مثل ماقدمه من المهر . ورأى الأمير سبأ من عالى همتها ما حقر نفسه معها ، حتى ندم على خطبتها . وهناك أقوال كثيرة حول هذا الموضوع وأهمها وأرجحها هو أن الأمير سبأ لم يتزوجها ، ومع ذلك أقامته الملكة أروى فى الدعوة والملك ؛ وكان كما مر فاضلا ورعاً تقيًّا زاهداً ، ما وطئ أمة قط ، ولا شرب مسكراً ، كريم الأخلاق طيب الأسباب والأعراق يقصده الشعراء وطلاب الندى . وقد أقام معه فى أشيح الشاعر الحسين القمى ، ومدحه بقصائده الغر ، ومنها :

إن ضامك الدهر فاستعصم بأشيح أو
أزرى بك الفقر فاستمطرْ بنان سبا
ما جاءه طالبٌ يبغي مواهبَـــه
إلا وأزمع منه فقْرُه هربـــا
تخال صارمه يوم الوغى نهـــرا
تضرمت من دم حافاته لهبـــا
بنى المظفر ما امتدت سماء علا
إلا وألفيتُمُ في أفقها شهـــبا
إن امرأ كنت دون الناس مطلبه
لأجدر الناس أن يحظى بما طلبا

ويقول ابن القيم :

وما يلتقى صدق الوداد وطاعة الا
عذول ولا جود ابن أحمد والجدبُ
كريم إذا جادت فواضل كفِّـــه
تيقّنت أن البخل ما يفعل السحب
أجار فلا خوف وأحيا فلا ردًى
وجاد فلا فقرٌ ورام فلا صعبُ
ويثنى على قصاده فكأنـــه
يجاد بما يُجدى ويحبى بما يحبـــو

كتبت إليه والمفاوز بيننـــا
وكان جوابى جود كفيه لا الكتب

ومن شعره فيه أيضاً :

معاليك لا ما شيدته الأوائـــلُ
ومجدك لا ما قاله فيك قائـــلُ
وما المجد إلاحيث يممتَ قاصـــداً
وما النصرُ إلا حيث تنزل نازل
مليك يقض الجيش والجيش حافـــل
ويخجل صوب المزن والغيث هاطل
سحاب غواديـــه لجين وعسجد
وليث عواديـــه قناً وقنابـــل
ترقى الأعادى بأسه وهو باسمٌ
ويرجو الموالى جودَه وهو صائـــل

وكان الأمير سبأ فصيحاً شاعراً يجيب الشعراء على قصائدهم ، ثم يجيزهم ويزيد فى برهم ، ومن ذلك أن ابن القمم مدحه فأجابه بمثل شعره وأجازه بجائزة سنية لا تصدر إلا عن مثله ، فقال فى ذلك القمى :

ولما مدحت الهزبرىَّ ابنَ أحمـــد
أجاز وكافانى على المدح بالمدحِ

فعوضنى شعراً بشعرى وزادنى
عطاءً فهذا رأس مالى وذا ربحى
شققتُ إليه الناس حتى لقيته
فكنت كمن شق الظلام إلى الصبح
فقبح دهر ليس فيه ابنُ أحمدٍ
ونزه دهر كان فيه من القبح

وهكذا ظل الأمير سبأ فى حصن أشيح يقدم المساعدات إلى الملكة أروى فى كل ما يعود على الدولة بالخير حتى وافته المنية سنة ٤٩١ هـ . وتشاء الأقدار أن يموت بعده أى سنة ٤٩٢ هـ أخو الملكة أروى لأمها عامر بن سليمان الزواحى وكانا من أركان الدولة الصليحية .

ولما مات الأمير سبأ وعامر خرجت صنعاء وأعمالها عن مملكة الصليحيين وارتفعت أيديهم عنها ، ولم يبق لأحد منهم فيها ذكر ، فاستولى على صنعاء وأعمالها يومئذ حاتم المغلس الهمدانى ، وكان ناهضاً كافياً ، ولم تحاول الملكة أروى إعادتها إلى مملكتها ، بل قبلت الأمر الواقع ، واتجهت إلى تدعيم ما بقى من المملكة ، فأقامت المفضل بن الوليد الحميرى على قيادة الجيش وإدارة شؤون الدولة التى كانت بحاجة إلى شخصية قوية ، وكان المفضل يتصرف بالأمور ،

ويدخل على الملكة أروى مع خواص وزرائهـــا والأمراء والأكابر ، وهو رجل الدولة ومدبرها ، والمرجع إلى رأيه وسيفه . والملكة أروى لا تقطع أمراً إلا به ، فعظم بذلك شأنه وعلت كلمته ، وغزا تهامة مراراً ، فتارة كانت له وتارة عليه . وهبط عدن مراراً ، ولم يبق باـ ن من يساميه قدراً . وكان له فى نصرة الملكة أروى مواقف حميدة منها أنه تولى قيادة الجيش لمحاربة الأمير سبأ حينما تأزمت الأمور بينه وبين الملكة أروى ، ولم تجبه إلى طلبه ، كما حارب الأمير على ابن سبأ صاحب حصن قيضان وأخرجه منه سنة ٤٩٥ هـ ، وملك حصون بنى المظفر فى نفس العام ، وحارب عمرو بن عرفطة الجبنى وغيره من سنحان وعنس وزُبيد واسترجع نصف خراج عدن من آل زريع .

وحدث فى سنة ثلاث وخمسمائة ما لم يكن فى الحسبان ، وذلك أن أولاد جياش اختلفوا فيما بينهم ، وكادت الفتن الداخلية تقضى على دولتهم فى تهامة ، ولما لم تكن الدولة الصليحية فى حالة تسمح لها بإيقاد نار الفتنة فى تلك البلاد تمهيداً لاحتلالها أو بقادرة على حفظ كيانها فى ذلك الوقت ، لم تتمكن من انتهاز الفرصة واسترداد البلد الذى طالما تاقت لضمه إليها . ولكن هذا الخلاف أدى إلى خروج منصور

ابن فاتك بن جياش من زُبيد فراراً من عمه عبد الواحد ، وسار فى عبيده وعبيد أبيه ، ونزلوا فى رحاب الملكة أروى ، فأكرمت مثواهم ، وتعهدوا للملكة بدفع ربع متحصل تهامة إذا هى ساعدتهم وتم نصرهم على عبد الواحد ، فأرسلت المفضل بجيش كبير يساعده جيش آخر بقيادة زريع بن العباس وعمه مسعود الهمدانى .

وولت على التعكر من يحفظه فى غياب المفضل الذى تمكن من الاستيلاء فيما بعد على زُبيد بعد حصار طويل ، وطرد عبد الواحد ، وهنا ماطل المفضل فى تولية منصور بن فاتك ، ولكن لمّا جاءته الأخبار بأن التعكر قد استولى عليه جماعة من الفقهاء بمساعدة بنى الزر الخولانيين قفل راجعاً وحاصر الحصن مدة ولكنه لم يستطع اقتحامه ، وذلك لأن الفقهاء السنيين — بالإضافة إلى قبيلة خولان التى كانت تظاهرهم — دافعوا عنه دفاعاً مجيداً ، وما زال الحصار عليهم ، ثم رأى الفقهاء أن خولان خذلتهم فدبروا حيلة .

ويقول المؤرخ عُمارة اليمنى : إن عمى إبراهيم بن محمد بن زيدان كانت له البيعة ، وحلف ألا يموت حتى يقتل المفضل ، فعمد إلى حظاياه من السرارى وأخرجهن فى أكمل زى وأحسنه ، وجعل بأيديهن الطارات ، وأطلعهن على سقوف

القصور بحيث يشاهدهن المفضل ويسمع هو وجميع من معه أصواتهن ، وكان المفضل أكثر الناس غيرة وأنفة ، فقيل إنه مات فى تلك الليلة ، وكانت وفاته فى شهر رمضان سنة ٥٠٤ هـ .

ولما مات المفضل طلعت الملكة من ذي جبلة ، وحطت بالربادى على باب التعكر ، وكاتبت الفقهاء بالنزول من الحصن على أن يقترحوا عليها ما شاءوا ، فأجابوا إلى ذلك ، واشترطوا عليها شروطاً وفت لهم بها ، وولت التعكر مولاها فتح بن مفتاح .

وكان المفضل حازماً عاملا شجاعاً شهماً له عدة مكارم وجملة مفاخر ، لكنها دون مكارم الأمير سبأ بن أحمد ، وكان جواداً ممدحاً قصده الشعراء من الأماكن البعيدة ، ومن جملتهم مواهب بن حديد المغربى وامتدحه بغرر قصائده ومن بعضها :

يا مالك الدين والدنيـــا وأهلهما
ومن بعزتـــه الإسلام ممتسـكُ
قد قيل جاور لتغنى البحر أو ملكاً
وأنت يا بن الوليد البحر والملك

وهو الذى جر الغَيْل من « خنوة » إلى مدينة الجنَد . ومدحه القاضى أبو بكر اليافعى فقال :

وأقل مكرمة له وفضيلـــــة
إجراؤه للغَيل فى الأجنـــاد
شق الجبال الشامخات كأنمـــا
كانت معالمها متون وهـــاد

وذلك أنه حفر فى الصفا حفراً عديدة ، وخرق بعضها إلى بعض ، وأجرى الماء فيها فى مواضع لا يصدق بها إلا من رآها ، ثم لما جاء إلى موضع بين جبلين أمر الصناع ، فبنوا جداراً من الجبل إلى الجبل طوله مائتا ذراع وعرضه نحو من عشر أذرع بالحديد وارتفاعه نحو من خمسين ذراعاً بحيث إذا رآه شخص يقول ما فعل هذا إلا الجن ، وبنى مسجد الجَنَد ، وجدد بناءه من المقدم والجناحين ما هو مبنى بالحجارة وسقفه على ذلك ، وقال صاحب « قلادة النحر » إن محمد ابن زياد المأربى مدحه فوصله المفضل بألف دينار ، وكان من صفاته عندما عظم أمره أنه كان يحتجب عن الناس حتى لا يرجى لقاؤه ، ثم يظهر فيُغنى من اجتمع ببابه من الوفود ، ويصل إليه الضعيف والقوى ، فينظر فى أحوال الناس والعمال ، ويجيب على كل كتاب وصل إلى الباب ، ثم يغيب فلا يظهر ولا يوصل إليه .

وقد أدت وفاة المفضل إلى خروج بعض الجهات على

الملكة أروى ، فاستولى مسلم بن الزر على حصن خُدد ، وأخرج منه عبد الله بن يعلى الصليحى الشاعر الأديب ، ثم أظهر ولاءه إلى الملكة أروى بأن قدم ولديه عمران وسليمان كرهينة عندها . فاهتمت الملكة بتربيتهما ولما توفى مسلم ملك بعده ابنه سليمان حصن خُدد ، وبقى عندها عمران الذى تولّى على حصن التعكر سنة ٥٠٥ هـ ، بعد أن تخلص من فتح بن مفتاح الذى شق عصا الطاعة على مولاته الملكة واحتال عليه بنو الزر ، وذلك أنهم خطبوا ابنته لعمران فزوجه بها ، فلما كانت ليلة الزفاف وصل جماعة منهم فأخرجوه من الحصن ، فلما حصل التعكر بيد عمران واصل فتح الملكة أروى ببذل الطاعة ، فلم تلتفت إليه ، فازداد نفوذ ابنى الزر تبعاً لذلك ، وامتدت أيدى خولان على الناس وعاثوا فساداً ، فكانت الملكة أروى إذا رأتهم قد طغوا أرسلت إلى عمرو بن عرفطة الجبنى سطراً أو سطرين بخطها ، فقبض على بلاد ابنى الزر ، فلا يخلصهما منه إلا الضراعة إليها والسؤال لها فى صرف العرب عنهما .

وحرصاً على سلامة الدولة أقامت الملكة أروى مقام المفضل ابن عمه الأمير أسعد بن أبى الفتوح بن العلاء بن الوليد الحميرى من القيام بدولتها ، والذب عن مملكتها والتوجه أينما أمرته ،

وكان متولياً تعز وصبر ، إذ كان أبوه قبله والياً عليهما ، فأخذ يدبر شؤون الدولة على أحسن حال حتى غدر به رجلان من أصحابه فقتلاه بين البابين فى حصن تعز سنة ٥١٤ هـ .

ولما تعقدت الأمور على الملكة أروى أرسلت إلى مقر الإمامة الفاطمية فى مصر تطلب منها إعارتها مستشاراً ليساعدها فى تدبير شؤون دولتها ، وقد شعرت الخلافة الفاطمية بأن مركز الدولة الصليحية بدأ يتزعزع ، فبادر الوزير الأفضل ابن بدر الجمالى فى سنة ٥١٣ هـ إلى إرسال الأمير الموفق « على بن إبراهيم بن نجيب الدولة » يصحبه عشرون فارساً مختاراً إلى بلاد اليمن ليقوم بهذه المساعدة .

وكان ابن نجيب الدولة قد قدم من مصر قبل وفاة الأمير أسعد بن أبى الفتوح الحميرى ، فقررت الملكة أروى إقامته فى مدينة ذى جبلة للاستشارة ولتصريف الشؤون الحربية والإدارية ، وكان متفقهاً فى أصول الدعوة الإسماعيلية ، مستبصراً فى المذهب الشيعى الجعفرى ، وكان على خزائن الكتب الأفضلية بمصر ، وكان نبيهاً حسن التدبير كثير المحفوظات قيماً بتلاوة القرآن على عدة روايات ، وكان يلقب بألقاب تدل على سمو قدره ، وكان موضع ثقة الخلافة الفاطمية . ولابد أن يكون هذا الرسول مكلفاً بأمور هامة لعلها كانت

تمكين الدعوة الفاطمية فى اليمن ، وتعزيز مركز الملكة أروى بعد أن طمع فيها زعماء البلاد واستقلوا بما تحت أيديهم .

وقد كان ابن نجيب الدولة عند حسن ظن الدولة الفاطمية به ، فلما وصل إلى جزيرة دهلك من عدن لقبه الداعى محمد بن أبى العرب ، فكشف له أسرار اليمن وأحوال الناس وأسماءهم وكناهم وتواريخ مواليدهم وما تحت ثيابهم من شامة أو جراح أو أثر نار .

فجاء إلى ذى جبلة ، وتشرف بمقابلة الملكة أروى ، فقلدته أمر جيوشها ، فاستخدم أربعمائة فارس من همدان وغيرهم ، وقدم عليهم الطوق الهمدانى ، واشتد بهم جانبه ، وقويت شوكته ، وتمكن من وضع حد للخلافات الداخلية ، وإعادة الأمن والطمأنينة إلى البلاد .

وكان أول عمل قام به هو تأديب الخولانيين ، لأنهم كانوا قد بسطوا أيديهم على الرعايا فى البلاد ، واستهانوا بالملكة أروى ، فطردهم من ذى جبلة ونواحيها ، وأوقع بمن بقى منهم حتى لم يبق منهم إلا ما كان منتسباً للملكة ؛ فلما رأت ذلك منه أمرته أن يسكن الجَنَد .

وقد أمنت البلاد ، واستقرت الأمور ، ورخصت الأسعار بحسن سياسته وتدبيره ، وأقام العدل ، وعفّ عما فى أيدى

الناس من الأموال ، وأقام الحدود وعزز جانب الملكة أروى ، وانقمع أهل اليمن عن الطمع فى أطراف بلادها ، وقد كان برنامج ابن نجيب الدولة مقصوراً على إخضاع إمارات اليمن الصغيرة للملكة أروى ، فتحسن بجهوده الفذة مركز الدعوة فى اليمن ، كما ساعد الملكة على جمع شمل كل من كان قد تفرق عنها ، وقد بلغ هذا الشأو البعيد من النجاح فى عامين اثنين ، بين سنتى ٥١٣ و ٥١٥ هـ ، وكان نجمه لايزال فى صعود ، لأنه بعد وفاة الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٥١٥ هـ أمده المأمون البطائحى الوزير بالمال والرجال ، فسير إليه أربعمائة قوس أرمنى وسبعمائة أسود . وقبل ذلك تمكن ابن نجيب الدولة من أن يستخدم ثلثمائة فارس من سنحان بقيادة الطوق الهمدانى بالإضافة إلى من انضم إليه من أهل الدعوة ، وقد ساعدت هذه العوامل على ارتفاع شأنه عند الملكة أروى وبخاصة بعد أن كتب إليه الوزير المأمون بالتفويض فى الجزيرة اليمنية ، وبسط يده ولسانه ، وأوجب عليه تقديم المساعدات للملكة أروى فى كل ما تطلبه .

ولقد أطمعه هذا المركز الحربى الممتاز فى محاربة الدولة النجاحية فى زُبيد سنة ٥١٨هـ ، والوزير يومئذ بها « منّ الله الفاتكى » أحد عبيد بنى نجاح ، وكان عشرة رماة من الأرمن

أصحاب ابن نجيب قد استأمنوا إلى أصحاب زُبيد . ولما تزاحف الرجال فى الحرب رمى رجل من العشرة المستأمنة بسهم فلم يخطئ أنف الفرس الذى عليه ابن نجيب الدولة ، فسقط إلى الأرض ، وشب الفرس عن ابن نجيب الدولة نافراً ، فانهزم عسكره ، وقتل السودان بأسرهم ، ولم ينج من الأرمن سوى خمسين ، وكانوا أربعمائة قوس ، وأما ابن نجيب الدولة فقاتلت عنه همدان أشد قتال حتى أردفه رجل منهم يسمى السباعى ، وكان فى همدان « الطرق الهمدانى » فأبلى هو وقومه بلاء عظيما .

ومن الجدير بالذكر أن جواد ابن نجيب الدولة قد انفلت من المعركة صلاة يوم الجمعة ، فأصبح يوم السبت ببلدة الجَنَد ، وبينها وبين زُبيد أربعة أيام ، فذاع يوم الأحد بذى جبلة أن ابن نجيب الدولة قد قتل ، ولكن ابن نجيب وصل إلى الجَنَد بعد أربعة أيام ، وركب إلى ذى جبلة ، واجتمع بالملكة أروى ، فعاضدته ، وأعطته الأموال ، وجمعت إليه الرجال بعد هزيمته فى زُبيد ، فمازال يغزو العدو إلى أقصى البلاد .

على أن ابن نجيب الدولة لم ينج من حسد منافسيه الذين أخذوا يوقعون بينه وبين الملكة أروى فأخذت علاقته

بها تفتر منذ عام ٥١٩ هـ ، حتى قيل إنه رماها بالخبل فقال : « قد خرفت واستحق عندى أن يحجر عليها » .

ثم اجتمع عليه أمراء اليمن سليمان وعمران ابنا الزر ، وسبأ بن أبى السعود ، وأسعد بن أبى الفتوح والمنصور بن المفضل فى ألفى فارس وثلاثة آلاف راجل فأحاطوا به فى الجَنَد ، وكانت الجَنَد ذات سور وكان مع ابن نجيب الدولة من همدان أربعمائة فارس منتقاة ، وكل فارس منهم يعد بمائة فارس . فلما اشتد الحصار عليه وهو فى أشد حالات التعب أرسل إلى الملكة أروى يطلب النجدة ، فأرسلت على جارى عادتها إلى عمرو بن عرفطة الجبنى ، فأتاها فخيم بذى جبلة ، وبعثت إلى وجوه القبائل ففرقت فيهم عشرة آلاف دينار مصرية ، وقالت للرسل أشيعوا فى العسكر أن ابن نجيب الدولة فرق فى الناس عشرة آلاف دينار مصرية ، فإن أنفق الأمراء شيئاً من الذهب المصرى بقينا وإلا ارتحلنا . فلما طالب الجند الأمراء بذلك وعدوهم ، ولما كان من الليل ارتحل الجند وتفرقوا كل واحد منهم إلى بلده ، وأصبحت الأمراء بلا جيش ، والحشود بلا أمراء ، وانفض الناس عن الجند بهذه الحيلة الحربية ، وهنا قيل لابن نجيب الدولة : هل أبصرت هذا التدبير للتى قلت إنها قد خرفت ، فركب إلى ذى جبلة ، وتنصل واعتذر .

لكن هذا التصرف الذى أنقذ ابن نجيب الدولة من الحصار ؛ ودل على حنكة الملكة أروى فى حرصها على إبقاء كلمة الفاطميين فى اليمن هى العليا ، قد أغضب سلاطين هذه البلاد لإخفاقهم فى التشفى من منافسيهم .

ولما رأى الخليفة الفاطمى الإمام المستنصر بالله أن سياسة ابن نجيب الدولة التى رسمها له الفاطميون قد حادت عن الخطة المرسومة أرسل إليه يستدعيه إلى مصر ، وبذلك انتهز أمراء اليمن الفرصة واتصلوا برسل الخليفة الفاطمى وشوّهوا سمعة ابن نجيب الدولة لديهم ، وقالوا إنه كان يقوم بالدعوة ضد الفاطميين ، وكان يريد تملك اليمن والاستقلال به .

كل هذا قد ترك أثراً سيئاً فى نفس الخليفة ، فأرسل إلى اليمن الأمير الموفق ابن الخياط فى مائة فارس للقبض على ابن نجيب الدولة ، ولما وصل إلى الملكة أروى فى ذى جبلة طالبها بتسليمه ابن نجيب الدولة ، وكانت قد قبضت عليه بحيلة ، فامتنعت عن تسليمه فى بادئ الأمر ، وأخيراً برأته مما نسب إليه وأظهرت طهارته وإخلاصه ، وأوصت به خيراً ، ثم سلمته إلى الأمير الموفق سنة ٥٢٤ هـ امتثالا لأمر الإمام بعد أن استوثقت له من ابن الخياط بأربعين يميناً ، وكتبت إلى الخليفة ، ثم أرسلت إليه كاتبها محمد بن الأزرى ،

وكان أديباً مجيداً للألفاظ ، وسيرت معه بدرة من الأموال تقدر بأربعين ألف دينار . وخرج ابن نجيب الدولة وهو فى قفص من خشب ، والناس ينظرون إليه فقال لهم : « ما تنظرون ؟ أسد فى قفص ! »

ويختلف المؤرخون فى نهاية ابن نجيب الدولة ، فبعضهم يقول : إن السيدة الحرة الملكة أروى سلمته إلى رسول الخليفة ، وبالرغم من شفاعتها وأخذها الأيمان الغليظة على الرسول ألا يمسه بأذى ، تآمر أعدؤاه مع الرسول على إغراقه فى البحر قرب باب المندب .

ويقول المؤرخ ابن ميسر فى كتابه : « أخبار مصر » : إن ابن نجيب الدولة وصل إلى مصر وشهر به فى القاهرة سنة ٥٢٤هـ . وقال آخرون إنه لا يعلم ما جرى لابن نجيب الدولة بعد خروجه من اليمن .

ومهما يكن من أمر فإن نجم ابن نجيب الدولة قد أخذ يأفل منذ أن دبّ النزاع بينه وبين الملكة أروى ، ومنذ أن أساء التصرف فى أمور الدولة . أضف إلى ذلك حقد أمراء اليمن عليه ومؤامراتهم ضده ومع ذلك فإن الملكة أروى فقدت بخروجه من اليمن أنشط أنصارها ومساعديها فتجلى طمع الأمراء فيها فى نفس اليوم الذى فارق فيه ابن نجيب الدولة

مدينة ذى جبلة إذ دخل عليها سليمان وعمران ابنا الزر شامتين فى ابن نجيب الدولة وخرجا من عندها وهما أشد ما يكونان سروراً وانشراحاً .

وبعد رحيل ابن نجيب الدولة اختارت الملكة أروى « على بن عبد الله الصليحى » ابن أخى على بن محمد الصليحى للدفاع عن دولتها وتولى الشؤون العامة . ولم يحدثنا تاريخ اليمن عما قام به من أعمال ، ولكن يظهر أن الدولة الصليحية بلغت درجة الانهيار فى عهده .

ومهما يكن من أمر فإن الملكة أروى عندما انفردت بالحكم فى آخر أيامها تاقت نفوس أمراء اليمن إلى الاستقلال والاحتفاظ بما تحت أيديهم من القلاع والحصون والبلاد ، بالرغم مما بذلته من جهود ، وما استعملته من حكمة ودهاء ، وما اعتمدت عليه من الرجال المشهورين بالكفاية والمقدرة والإدارة وبالرغم من معاضدة الخلافة الفاطمية فى القاهرة لها ... لكن العوامل الانحلالية وأسباب الانقراض تسربت إلى قلب الدولة ، فكانت أقوى من العوامل الأخرى كافة ، وتغلبت أخيراً عليها .

ومن الجلى الواضح تاريخيًّا أنه كان فى تلك الأثناء منصور ابن المفضل بن أبى البركات الحميرى مستولياً على ذى جبلة ،

وملك منصور أيضاً أشيح وحصونه بعد وفاة أبيه المفضل سنة ٥٠٤ هـ ، ولكنه ظل يدين بالطاعة للملكة أروى حتى وفاتها سنة ٥٣٢ هـ . وبعد ذلك استولى على ما كان تحت يدها من حصون وذخائر وأموال. ولمّا تقدمت به السن، وصار لا يستطيع حماية هذه الحصون من الطامعين، وأعيته الشيخوخة عن التحرك والمدافعة ، باع حصون بنى الصليحى ومدنهم سنة ٥٤٧ هـ ، وهى ثمانية وعشرون حصناً ومدينة ، ومنها ذى جبلة والتعكر وذى أشرق وإب . وقد ابتاعها المتوج محمد بن سبأ الزريعى بمائة ألف دينار .

ويصادف فى تلك الأثناء أن يطلق منصور زوجته الصليحية ، وكانت الوريثة الوحيدة للملك وللثروة ، فتزوجها محمد بن سبأ الزريعى فقوى نفوذه ، وامتد ذكره لما صار إليه من المال والقوة والمعاقل والعقائل .

وقد بقيت هذه الحصون والمدن فى أيدى ملوك بنى زريع إلى أن استولى على بلادهم « عبد النبى بن على بن مهدى » وبعد ذلك صالحوه على تركها فى أيديهم ، وظلت كذلك حتى أزالهم عنها « توران شاه بن أيوب » .

وهكذا انتقلت السيادة فى اليمن من اليمنيين إلى الأيوبيين الذين حرصوا على إظهار ولائهم للخلفاء العباسيين ، وأقاموا

الخطبة للعباسيين فى جميع أنحاء اليمن التى دخلت تحت رايتهم .

وأخيراً : لابد من القول إن الملكة أروى الصليحى الإسماعيلية ستبقى خالدة فى نفوس اليمنيين والعرب بصورة عامة مدى الدهور . كما بقيت إلى يومنا هذا مآثرها وأعمالها الجليلة التى تنطق بعظمتها وستظل وحياً ونوراً فى حياة الشعب مهما اختلفت الطرق واشتدت الأزمات وبعدت المسافات وتخلفت القوافل . لأنها وحيدة كل زمان والمرأة التى حكمت اليمن بعد « بلقيس » .

ومن مجريات الأمور والحوادث التاريخية المتسلسلة يستدل أن الخليفة الفاطمى الإمام المستنصر بالله كان يعدها مثلا أعلى للمرأة ، وذلك لكفايتها فى إدارة شؤون البلاد وحكمتها وسياستها ، فلهذا لا يدخلها فى عداد ربات الحجاب .

والحقيقة : أنها من شهيرات النساء اللائى كان لهن أثر ظاهر فى حياة بلادهن ، وقد أثّرن روحيًّا وعمليًّا فى حياة الشعوب وجعلن الأجيال تحنى أمامهن الهامات إجلالا واحتراماً لما قمن به من جليل الأعمال .

فهى ملكة عظيمة توجها الشعب اليمنى ، وضمها إلى صدره ، وأحبها ، ونظر إليها كما ينظر إلى القديسين والمخلصين الذين يخرجون بالناس من الظلمات إلى النور .

وقد عشت بالروح مع هذه المرأة أتسقط أخبارها من كل سفر . وأتعرف على أخبارها من أغرب المخطوطات ، وكلما زاد بى البحث والتنقيب زدت بها حبًّا ، وتضاعف إعجابى وتقديرى لها .

ذاك عصر بعيد ، ولكنه جميل ، نرى فيه الطموح والمغامرة والتطاحن السياسى والمؤامرات والحروب والقتل ، كما نلمس فيه الثبات والرجولة والوفاء يتجلى مع سحر الشرق وروحانيته وكرم بنيه وإيمانهم الراسخ بالله .

ماتت الملكة أروى الصليحى فى غرة شهر شعبان من سنة ٥٣٢هـ عن ٩٢ سنة ، ودفنت فى مسجد ذى جبلة إلى الجهة الجنوبية فى منزل متصل بالمسجد ، وكانت هى التى تولت عمارته وهيأت فيه قبرها . وقبرها إلى اليوم يزوره . جميع فرق المسلمين . ويعترف بفضلها الخاص والعام .

هذا ؛ وإذا كانت الدول الناهضة فى العصر الحاضر تعمل على تنمية اقتصادياتها بشتى الوسائل لإسعاد شعوبها ، وتوفير الرخاء لأكبر عدد من سكانها ، ورفع مستوى المعيشة بين أفرادها ، وهى بذلك لا تترك ناحية من نواحى الإنتاج إلا ولتها عنايتها المرموقة ، لتصل إلى هدفها المنشود ، فتهتم بالزراعة والصناعة والتجارة والمواصلات ، ويعد هذا العمل من قبل

هذه الدول عملا مشكوراً كما يعد من أهم الأسباب التى تساعد على تقوية مركز الحكومات فى نظر الرعايا — إذا كان ذلك وكان مدى تقدم الدول الآن يقاس بمقدار ما تقدمه الحكومات من إصلاحات فى سبيل رفع مستوى المعيشة للشعوب ؛ فإننا نقف معجبين عندما نعلم أن الملكة أروى قد سبقت الحكومات المتحضرة المعاصرة فى اهتمامها بتنمية اقتصاديات اليمن ، فقد اهتمت الملكة برعى المواشى وتحسين النسل لكى توفر للشعب بمختلف طبقاته اللحوم والألبان ، بل توفر القوة والغنى ، فقد أثر عنها أنها وقفت أراضى واسعة فى نواحى ذى جبلة وحقل قتاب تصرف غلاتها فى شراء الفحول من البقر ، كما وقفت أراضى كثيرة ثمينة خصبة لرعى المواشى ، وهـــذه الأوقاف لا تزال موجودة إلى الآن ومعـــروفة باسم « أوقاف السيدة » ، وكل هذا قد حدث فى العصور الوسطى مما يدل على أن الملكة أروى سبقت فى تفكيرها ووعيها دول العصر الحديث التى تعمل بشتى الوسائل على تنمية اقتصادياتها وتصرف الأموال الطائلة فى سبيل ذلك .

وأمر آخر لا يقل أهمية عما ذكرناه ، ويدل على سبق الملكة أروى فى تفكيرها لعصرها ، وهو الاستعانة بالمستشارين من الدول الأخرى ، وعلى الرغم من وجود شخصيات وأمراء

وزعماء أكفياء فى بلادها ، فقد عرف أنها طلبت من الخليفة الفاطمى فى القاهرة الإمام المستنصر بالله أحد رجاله المشهود لهم بالكفاية والمقدرة . وقد أجابها لذلك بأن أرسل إليها ابن نجيب الدولة ، وهذا ما تفعلة الدول فى العصر الحديث فتستعين بالخبراء الأجانب على الرغم من توافر رجالها الممتازين وتقدمها فى مضمار الحضارة .

وعرفت الملكة أروى التجارة مرفقاً هاماً من مرافق الاقتصاد الوطنى ، وأن هذا المرفق يعتمد على المواصلات وهى الدعامة الكبرى لتسهيل نقل الحاصلات والواردات ، فعبدت الطريق من رأس جبل سمارة إلى السيانى على مسافة ثلاث مراحل ، ويعد هذا أول الطرق الزراعية الممهدة فى اليمن وأكثرها فائدة إلى الآن.

وأولت عنايتها أيضاً لحركة البناء والتعمير التى تعد دعامة قوية من دعائم استقرار الحكم ورضا الشعوب ، فأنشأت الكثير من المدارس ومنها مدرسة لتدريس الصحيحين بذى جبلة ، وأنشأت المصالح العامة المتعددة ، وبنت المساجد والمصحات ، فهى التى وسعت جامع صنعاء ، وأضافت إليه الجناح الشرقى وصممت عمارته وزينته ، وكان اسمها مكتوباً على الأحجار البيضاء التى كانت فوق الباب ، ولكن التعصب لم يترك من هذه الأحجار شيئاً ؛ وبنت كذلك مسجد الضربة

فى بلاد يريم ، والمسجد الجامع فى ذى جبلة ، ولها علاوة على كل ذلك أعمال جليلة وآثار باقية لا تخفى .

يضاف إلى كل ماذكرنا من فضائلها وأعمالها وسياستها أنها منحت رعاياها فى البلاد اليمنية حرية الاعتقاد فلم يكن هنالك أى ضغط على أحد بسبب الدين وساوت بين كل رعايا دولتها فأصبح لليمن سمعة عالية فى كل مكان ، وكان هذا من الأعمال التى تفاخر بها الملوك ، فهى تستهدف مصلحة الشعب وإتاحة الفرصة لجميع الكفايات فى بناء الوطن الذى كانت الملكة أروى تعده ملكاً للشعب وليس لنفسها أو لأسرتها .

وفى نهاية المطاف نقول :

إن السبب الرئيسى فى سرعة انتشار نفوذ الصليحيين فى اليمن فضلا عن سيرتهم الفاضلة ، واتحاد معظم قبائل همدان وحمير تحت لوائهم . يرجع إلى الفوائد التى كسبتها دولتهم بفضل اتصالهم بالخلافة الفاطمية وبمنظمة الدعوة الإسماعيلية بالقطر المصرى ، لأن الدعاة أنفسهم كانوا يعترفون بأن المستجيبين لم يدخلوا حظيرة الدعوة إلا رغبة فى تكوين دولة أهل البيت ، وقد نرى أن ولاءهم للأئمة الفاطميين ، واتصالهم بالخلافة الفاطمية بمصر ساعد الملك على الصليحى عندما

قام بتأسيس دولته ، فقد ساعدته الدعوة فى امتداد نفوذه وتقوية مركزه حتى تمكن بهذه الطريقة وبقوة عزيمته وبعظيم همته أن يكون سيد اليمن الأول ، وكان هذا الاتصال بالخلافة الفاطمية المصرية فى الوقت نفسه ضعفاً لكيان الدولة اليمنية وبقائها .

أما عن امتداد نفوذ الصليحيين فى خارج بلاد اليمن ، فقد ذكرنا فيما سبق ما حدث بعد دخول الملك على الصليحى مكة سنة ٤٥٤ وإقامة الخطبة للخليفة الفاطمى الإمام المستنصر بالله ، فلقد كانت هنالك دوافع سياسية ، وعلى الأخص دينية ، تجعل الخلفاء الفاطميين يحثون ولاتهم فى اليمن على التدخل فى شؤون الحجاز لأن الفاطميين كانوا يريدون بشدة أن يخطب لهم على منابر الحرمين الأعظمين مكة والمدينة ، ولهذا نلاحظ منافسة شديدة فى تلك العهود تقع بين الخلافتين الفاطمية والعباسية ، فكانت كل منهما تسعى إلى الاستيلاء على الأراضى المقدسة بالحجاز ، وذلك لتوطيد نفوذها ومركزها فى أهم نقطة التقاء للعالم الإسلامى .

وكل هذا من قبل الصليحيين بالإضافة إلى ردهم بنى شيبة عن قبيح أعمالهم ، وتأديب الشرفاء وإصلاح ما أفسده

بنو الطيب الحسنيون فى الحجاز ، وترخيص الأسعار ، ونشر الطمأنينة والأمن ، فى البلاد المقدسة .

ولقد كان لهذه الانتصارات فى الحجاز ولتلك السياسة الرشيدة والحماسة البالغة للدعوة من قبل على الصليحى الأثر العظيم فى تولى رئاسة الدولة . ثم فى نيل ثقة الفاطميين وتكليفه من قبلهم بالإشراف على شؤون الدعوة فى الهند والبحرين والأحساء والسند . فعندما علمت الدوائر الحكومية الفاطمية بضعف حكام عمان نتيجة للثورات التى قامت فيها على حكوماتها الموالية للخلفاء العباسيين ، منحت الملك على الصليحى وولده الملك المكرم صلاحية الإشراف على رئاسة بلاد اليمن وعمان الدينية والسياسية معاً على الرغم من أنها كانت خارجة عن نطاق حكمه ، كما عهدت إليه بالإشراف على شؤون الدعوة فى البحرين والأحساء ، ويتبين ذلك من السجل المستنصرى الموجه إلى الملك المكرم ، فقد جعل له الخليفة الفاطمى الإمام المستنصر بالله ولاية الأحساء وعمان جميعها دانيها وقاصيها ، ويأمره أيضاً أن يكون الأمير عبد الله بن على العلوى أمير الأحساء نائباً عنه فيها ، وأن يمده من جهته ، وذلك لأن له مواقف حميدة فى إقامة الدعوة الإسماعيلية ونصرتها على الخوارج وانتزاع زمام العمل والزعامة منهم .

إن الدولة الصليحية الإسماعيلية فى اليمن بفضل مؤسسها الملك على الصليحى كانت ذات مركز ممتاز فى العالم الإسلامى ، فقد تمكن الصليحى من جمع اليمن كله تحت لواء دولته ، كما مد نفوذها إلى البلاد المقدسة فى الحجاز شمالا وحضرموت جنوباً ، وفى عهد خلفه الملك المكرم صارت عمان والأحساء والبحرين والهند والسند تحت النفوذ الروحى للدولة الصليحية ، فبلغ هذا النفوذ أبعد غاياته فى عهد الملك المكرم . إن هذه الدولة التى حاولت أن تسعد رعيتهـــا ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ما لبثت أن أخذت تضعف ، شأنها فى ذلك شأن كل كائن حى .

وإذا أردنا أن نصل إلى معرفة هذا الضعف وجب علينا أن نرجع ذلك إلى أصول بعيدة لا يمكن التغاضى عن ذكرها فى معرض البحث .

فلقد استفادت هذه الدولة من غير شك من الحالة التى سبقتها ، وكانت اليمن كما ذكرنا تسودها الفوضى والانحلال قبل ظهور الملك على الصليحى ويحكمها الأمراء والسلاطين وبخاصة بنو نجاح الأحباش فى تهامة اليمن ، فاستيلاؤهم على حكم تهامة وما جاورها أوجد روح التمرد والتذمر بين القبائل العربية التى عبرت عن عدم ارتياحها لهذه الحالة

بالانضواء تحت راية ملك عربى أصيل ينتمى إلى صميم قحطان ، وقبول بعض القبائل الدخول فى الدعوة الفاطمية مع كونها تخالف إلى حد ما عقيدتهم ، بعد ما رأوا من علو همة الصليحى وانتصاراته وحسن إدارته وسياسته وحرصه على مصالح رعيته . ولعل انتشار نفوذ الصليحى فى البلاد يرجع إلى رغبة تلك القبائل فى التخلص من حكم الأحباش .

لقد ارتاحت العرب واطمأنت بعد أن صير الصليحى شتات أمرهم وحدة يمنية جامعة ، وقضى على الدويلات وأطماع سلاطينها ، وأدخل نظاماً من نوع آخر بدل الفوضى والانفرادية واستقلال النظام القبلى ، بقدر ما ترتب على وحدة اليمن من منافع محققة للشعب وما بذله الصليحيون من جهد لإسعاد شعبهم طول مدة حكمهم ، وما فعلته هذه السياسة من تثبيت مركز الدولة ، لكن عوامل الانحلال والتذمر أخذت تظهر مرة أخرى بعد أن وجدت هذه القبائل وزعماؤها أنها فقدت ما كانت تتمتع به فى ظل النظام القبلى المستقل الذى كان منتشراً فى الجهات المختلفة ، وحل محله نظام الإقطاع فى عهد الدولة الصليحية لتستعيض به عن الحكومة المركزية ابتغاء الحصول على قسط من الأمن والاستقرار .

أضف إلى ذلك إهمال الدولة الصليحية والخلافة الفاطمية

فى مصر تحقيق التعاون الاقتصادى والتبادل التجارى بينهما . ومن الجلى الواضح أن الدولة قد استنزفت قسطاً كبيراً من ماليتها وإنتاجها فى الحروب الداخلية والخارجية وكل ذلك بسبب العداء القديم بين هذه الدولة وأصحاب العقائد الأخرى .

ومما لاشك فيه أن الزراعة والفلاحة هما قوام المجتمع فى أى بلد كان ؛ وأن جمهور ذلك المجتمع يتكون من الفلاحين ، ولم تكن هذه الطبقة إلا من العناصر الفقيرة فى الشعب المحرومة من كل عطف ، ولهذا لم ترض بحكم الصليحيين . ولما كانت ثروة الدولة تعتمد الاعتماد الكلى على هذه الطبقة العاملة ، فإن عـدالة حكم الصليحيين كانت تقتضى السهر على مصلحتها ومساعدتها ، والضرب على أيدى الولاة المخالفين الذين يعيشون بروحية القرون البعيدة القائمة على التحكم والاستعباد ، وإن مثل هذا العطف كان يلاقى كل قبول لدى هذه الطبقة ويحول دون انتشار روح التذمر بينهم ، وقد رأينا الملك على الصليحى قد وعد عماله بالتنكيل إذا رفع إليه شىء مما نهاهم عنه ، كما أمر جميع الرعية أن يرفعوا إليه ما يكون من العمال من فعل القبيح والحسن حتى ينزل بهم من إنعامه وعقوبته بحسب أفعالهم ، وقد دعاه إلى ذلك خوفه من أن ظلم الولاة قد يثير حنق الرعية ، وتعلم ذلك ممن سبقه

فى حكم اليمن . فعرف أنه بسياسة اللين المقرونة بالحزم يمكنه أن يحفظ دولته من أعاصير الفتن ومن رياح الثورات .

وكان الصليحى قد وزع السلطة فى البلاد بين من يثق فيهم من الصليحيين والزواحيين فأصلح كل حصن يحكمه أحد أعوانه ، غير أننا نرى أن هؤلاء الولاة كانوا مقيدين بسياسة خاصة رسمها لهم الصليحى ليسيروا على نهجها ، وعلى الرغم مما يبدو فى هذه السياسة من المنافع لمصالح الرعية ، وحرص الصليحى على استقرار الأمن فى ربوع دولته ، ما لبثت الأمور أن تغيرت بعد مقتله فى موقع المهجم سنة ٤٥٩ هـ . وذلك لأن مدة حكم المكرم استنفدت كلها فى الحروب ، فلم يقدر أن يلتفت كثيراً لمصالح الرعية فأخذ نفوذ حكام الحصون يزداد ، وأخذ روح التذمر والاستياء من هذا النظام يزداد تبعاً لذلك ، هذا إلى جانب ما استتبعه من الأعباء الثقيلة التى كان يقع غراماً على طبقات الشعب الفقيرة وحدها ، ولم يكن هذا التذمر يرجع إلى عدم تعودهم هذا النظام الجديد وحده ، بل كان يرجع إلى حرمانهم الامتيازات والمنافع التى كانت تتمتع بها طبقة رؤساء الإقطاع الذين كانوا يختارون من قبائل أرستوقراطية معينة كالصليحيين والزواحيين أو اليامين لتضمن الدولة الصليحية تنفيذ سياستها

العامة . ولعل كثرة الحروب التى قام بها الملك المكرم فيما بعد ترجع إلى الاستياء من حكمه غير المستقر ، ولعل ذلك هو أحد الأسباب لاستنفاد الجهد والمال . وقد تمكن مع ذلك من حفظ دولته من كل هذه الأعاصير المضطربة الهوجاء .

مطابع دار المعارف بمصر

سنة ١٩٧٠

obeikandl.com